

مخالفة القرآن لما وضعه الخليل من أوزان

أ. محمد الحبيب منادي

ملخص :

باعتد تعريف إجرائي يقوم على أنّ (الإيقاع تكرارٌ لكمّ بانتظام واطراد) نحاول تأكيد الحقيقة القرآنية الثابتة لكون القرآن شعراً بدلالات إحصائية دقيقة ، وأنّ أوزان الشعر لا ترقى بنسبها إلى أن تسم القرآن بالشعر ، وقد توصلنا إلى ملاحظة تشظي طرقي الإيقاع القرآني الذي يتضمّن بنية إيقاعية شعرية ، ممّا يعتري البنية الكلامية من بتر في الحروف من أحد طرفي البنية الإيقاعية أو كليهما ، حتّى لا تتأهّى بنية الكلمات القرآنية مع البنية الإيقاعية الشعرية .

وخلصنا بهذا إلى أنّ إيقاع القرآن الكريم يعتمد الكثير من الأسس المنهجية لبناء الإيقاع الشعري ، لكنّه يتخذ له أسلوباً وطريقةً للنظم يختلفان عن فنون القول الشعري . لنصل إلى نتيجة أساسية وهي أنّ : (القرآن ليس شعراً ، وكلّمّا ابتعد الإيقاع عن وصفه بالشعر كلما كانت نسبته أكثر في القرآن الكريم ، والعكس صحيح). ويتبيّن أن نقول " إنّ القرآن يميّز في كلّ سورة منه وآية ، وفي كلّ مقطع منه وفقرة ، وفي كلّ مشهد فيه وقصة ، وفي كلّ مطلع منه وختام بأسلوب إيقاعي فريد يتجاوز حدود الإيقاع الشعري " .

Résumé :

On a donné une définition du rythme basé sur la définition suivante : Le rythme est une quantité qui est répété régulièrement et systématiquement. et obtenir la confirmation du fait que le Coran ce n'est pas la poésie avec des significations statistique exacte de la poésie , et Lorsque ces mètres approche de poésie s'éloigner du Coran ...

On concluent que le rythme du Coran supporte la plupart des fondements méthodologiques pour la construction du rythme poétique , mais prendre son style et la manière dont les systèmes sont différents à dire sur l'art de la poésie .

Et concluent que le Coran ce n'est pas de la poésie et Lorsque ces mètres approchent de poésie s'éloignent de Coran , Et vice-versa .

Il reste à dire que le Coran est caractérisé dans chaque sourate et verset, et dans chaque section de celui-ci et un paragraphe, et dans chaque scène et histoire, et dans tout cela et le début de la fin d'un style rythmique unique au-delà des limites du rythme poétique.

بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين .

أما بعد :

فقد كان للبيئة العربية إيقاعها الخاص ، مما جعل العرب يتميزون بإحساس مرفه جعلهم بفطرتهم يحسنون إيقاع الكلام أيما كان نوعه ، وكانوا يمارسون حياتهم شعراً في المحادثات والأحاديث العادية ، ويتفننون في طرق ترديد الأصوات في الكلام حتى يكون له إيقاع خاص ، يسترعي الأذان بالفاظه ، كما يسترعي القلوب والعقول بمعانيه . وبهذا الإيقاع كان بإمكانهم التأثير في المتلقي فينفع وتتحرك مكنوناته فينصاع للعمل الفني وينجذب إليه . ويرجع ذلك إلى ما أتاحتها طبيعة اللغة العربية ذاتها التي تعتبر في المقام الأول لغة إيقاعية ، « ولعل لغة من اللغات قديماً وحديثاً لم تعرف تكامل الإيقاع في موسيقى الشعر على نحو ما عرفته لغتنا العربية العريقة »⁽¹⁾ . وهذا ما حوّلها أن تكون لغة التزييل ، ويكفي أن نسمع كلام العرب متصلاً لنحس « بتشابه كميات المسافات بين نبر وآخر ، أو بتقاربها ، وهو ما يمنح الأذن الإحساس بالإيقاع »⁽²⁾ .

وحين نزل القرآن على رسول الله ﷺ ، كان أول ما افتتن به الناس إيقاعه الفريد ، وعرف العرب الذين أنزل عليهم القرآن أنه من نوع كلامهم ، ومن جنس ألفاظهم ، وهو ما جعل البعض ممن شهدوا نزول الوحي يتوهمون أن هذا القرآن شعر ، بل لم يتورعوا عن وصفه به ، « ولا عجب إذاً أن يكون أدنى الألقاب إلى القرآن في خيال العرب أنه شعر ، لأنها وجدت في توقيعه هزة لا تجد شيئاً منها إلا في الشعر . ولا عجب أيضاً أن ترجع إلى نفسها ، فتقول : ما هو بشعر ، لأنه - كما قال الوليد ابن المغيرة - ليس على أعاريض الشعر في رجزه ولا في قصيده »⁽³⁾ . ولذلك فقد تواترت الآيات تؤكد معنى واحداً ، هو أن القرآن إنما نزل بلغة العرب ولسانهم : [إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ] [يوسف : 02] . [بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ] [الشعراء : 195] . [وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ] [النحل : 103] . فكل هذه الآيات وغيرها⁽⁴⁾ جاءت لتؤكد للعرب أن القرآن الكريم نزل بلسانهم وعلى نهج كلامهم ، ومع هذا فقد أعجزهم ، وحاروا في أمره ، لا يرون في آدابهم له نظيراً ، ولا يرون أنفسهم قادرين على تقليده .

ولا شك - أيضاً - في أن العرب كانوا يعرفون أوزان الشعر ممارسة واستعمالاً ، ويدركون الفرق بين كل وزن وآخر ، ولم يخلط الشعراء بين هذه الأوزان ، وقد ذكر " الأخفش " في كتابه " القوافي " نصاً يقول فيه : « سمعت كثيراً من العرب يقول : جميع الشعر قصيدٌ ورملاً ورجز ، أما القصيد فالطويل والبسيط التام »

1 - ضيف ، شوقي : [1930 م] ، فصول في الشعر وقده ، د . ط ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر ، ص : 28 .

2 - شبلي ، عبد محمد : [1993 م] ، الفاصلة القرآنية بين المبنى والمعنى ، الطبعة الأولى ، دار حراء ، القاهرة ، مصر ، ص : 70 ، 71 .

3 - دزاز ، عبد الله : [1405 هـ - 1985 م] ، اللب العظيم (نظرات جديدة في القرآن) ، د . ط ، نشر وتوزيع دار الثقافة ، الدوحة ، قطر ، ص : 103 .

4 - انظر الآيات : [طه : 113] ، [الزمر : 28] ، [فصلت : 03] ، [الزخرف : 03] ، [الشورى : 07] .

والكامل التام والمديد التام والوافر التام والرجز التام ، وهو ما تغنى به الزكبان ، ولم نسمعهم يتغنون إلا بهذه الأبنية ، وقد زعم بعضهم أنهم يتغنون بالخفيف ، والزمل كل ما كان غير هذا من الشعر ، وغير الرجز ، فهو رمل . والرجز عند العرب كل ما كان على ثلاثة أجزاء ، وهو الذي يترنمون به في أعمالهم وسوقهم ويحدون به ⁽¹⁾ . وهذا النقص بالغ الأهمية لأنه يبين بأن العرب كانت تعرف - تفصيلاً - الفارق بين أنواع الشعر ، بل وبين أوزان هذا الشعر ، حتى قبل أن يضع "الخليل" (علم العروض).

وبرغم استكمال العرب لصورة القصيدة وإيقاعها عندهم ، وبرغم معرفتهم بأنواع الشعر هزجه ورجزه ... لم يتوانوا عن الظن بأن القرآن شعر ، ونسبوا لبعض آياته صفة الشعر ، وذلك لم يصدر قطعاً عن جهل أو خلط ، بل كان نتيجة احتكاكهم إلى معيار الأثر الذي يحسنه المتلقي بغير صور الشعر المعروفة . فالمشركون لما سمعوا القرآن قالوا - أو من قال منهم - إنه شعر ، " فقال " الوليد بن المغيرة " منكرًا على من قال إن القرآن شعر: " لقد عرضت ما يقرؤه محمد على أقرء الشعر ، هزجه ورجزه ، وكذا وكذا ، فلم أره يشبه شيئاً من ذلك " ويعقب " ابن فارس " مستنحجاً : « أفيقول " الوليد " هذا وهو لا يعرف بحور الشعر ؟! » ⁽²⁾ . وفي نص " ابن فارس " دليل واضح على معرفة الجاهليين بقواعد الشعر وأنواعه ، رغم غياب أي وعي لوجود نظام نظري لتشكلات الإيقاع الشعري ، ويؤحي هذا النقص أيضاً بمدى الالتباس الذي كان العرب يجدونه بين إيقاع القرآن وإيقاع الشعر ، حتى سألوا عنه خبراءه .

ولوجود تعالق بين إيقاع القرآن وإيقاع الشعر قام البعض بمعارضته ، ظناً منه أن إيقاع القرآن وإعجازه إنما يكمن في تلك التقاطعات التي بينه وبين الشعر ، وما هي في الحقيقة إلا بعض إيقاعه ، وخيط من نسجه ، ومن هؤلاء : " ابن المقفع " في (القرن الثاني) ، و " المتنبي " في (القرن الرابع) ، و " قابوس بن وشمكير " ، و " ابن سينا " ، و " أبو العلاء المعري " في (القرن الخامس) ... ولما تبين عجزهم عن معارضته قام آخرون بدراسة نظمه وإعجازه ...

ومن خلال دراسة القدماء لإيقاع القرآن والمتمثل في نظمه ⁽³⁾ نجد أنهم مع تنبيههم إلى وزن القرآن ، ومقارنتهم له بوزن الشعر ، وتقديم ملاحظاتهم في ذلك إلا أنها لا ترقى لوضع منهج واضح لإيقاع القرآن الكريم

¹ - الأخفش ، أبو الحسن سعيد بن مسعدة : [1390 هـ - 1970 م] ، كتاب القوافي ، تحقيق : عزة حسن ، مطبعة وزارة الثقافة ، دمشق ، سورية ، ص : 68 .

² - انظر : ابن فارس ، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي : [1977 م] ، الصحاح في فقه اللغة ، تحقيق : أحمد صقر ، طبعة البايع الحلي ، القاهرة ، مصر ، ص : 09 - 10 . وانظر : عبد اللطيف ، محمد حساسة ، البناء العروضي للقصيدة العربية ، ص : 06 . وانظر أيضاً : البحراوي ، سيد : [1993 م] ، العروض وإيقاع الشعر العربي (محاولة لإنتاج معرفة علمية) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، مصر ، ص : 16 .

³ - انظر : حريز ، ساي محمد هشام : [2006 م] ، نظرات من الإعجاز البياني في القرآن الكريم (نظرياً وتطبيقياً) ، الطبعة الأولى ، دار الشروق للنشر والتوزيع ، عمان ، الأردن ، ص : 62 . وفيه عرض مُفصل لفكرة الإعجاز بعد عصر النبي ص ، مما يقوم منها على فكرة النظم والمتمثل فيه يجد أن (نظم القرآن) إنما يقوم على (الإيقاع) .

ومدى تعالقه بإيقاع الشعر وتبميز الواحد منها عن الآخر ، ولعلّ هذا يرجع إلى انصرافهم إلى المعاني وما تحمل من تشريع وعقيدة ، وهو جلّ اهتمامهم في ذلك الوقت . كما أنّ ملاحظاتهم لتقاطع إيقاع القرآن مع إيقاع الشعر إنّما تمّ توظيفها في إبداعاتهم الخاصّة ، والمتّثلة أساساً في ما عُرف بالاعتباس ، كقول " الشافعي " مثلاً :

اثنتي بالذي استقرضت مّي = وأشهد معشراً قد شاهدوه

فإنّ الله .. خلاق البرايا = عنت لجلال هيبتة الوجوه

يقول : (إِذَا تَدَايَيْتُمْ بِدَيْنٍ = إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ)

فالنّصّ المقتبس في البيت الثالث من قوله تعالى: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَيْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ] [البقرة : 282] ⁽¹⁾ . ويقول في الذين أغرتهم الدّنيا :

فُضَاة الدّهر قد ضلّوا = فقد بانت خسارتهم

فباعوا الدّين بالدّنيا = (فَمَا رِيحَتْ تِجَارَتُهُمْ)

والشّطر الأخير مقتبس من قوله تعالى : [فَمَا رِيحَتْ تِجَارَتُهُمْ] [البقرة : 16] .

وأمثال هذه الاقتباسات كثير ممّا يتعدّد إحصاؤه والإحاطة به ، وقد امتلأت به دواوين الشعراء ، وكتب الاقتباس ⁽²⁾ وهو يعكس إحساس الشعراء بوجود إيقاع يُماثل إلى حدّ ما إيقاع الشعر ، ويُخالقه في الآن نفسه . وقد يقول قائل إنّ جانب التأثير بالقرآن - عند سماعه - راجع لمعانيه ، لا لشيء آخر . فنقول : حتّى من لم يلتفت إلى معاني القرآن واكتفى منه بالإيقاع وحده فسيجد فيه عجباً « فمن ألّقى سمعه إلى مجموعة القرآن الصّوتيّة ، وهي مُرسلة على وجه السّداجة في الهواء ، مجرّدة من هيكل الحروف والكلمات ، كأن يكون السّامع بعيداً عن القارئ ، يشعر من نفسه - ولو كان أعجمياً - بأنّه أمام لحن غريب وتوقيع عجيب ، يفوق في حسنه وجماله كلّ ما عرف من توقيع الموسيقى ، وترنيم الشعر » ⁽³⁾ .

فما هو السرّ في أن يستعذب القرآن كلّ من سمعه ؟ وما الذي يدفع المشركين إلى وصفه بالشّعّر رغم معرفتهم بالشّعّر وأنواعه ؟ ولو افترضنا جدلاً أنّ القرآن شعرٌ لوجود أوزان شعريّة فيه ، كيف يُمكننا عن طريق

¹ - والأبيات ليست في ديوانه ، وإنّما هي موجودة في ص : (482) من كتاب : (البرهان في علوم القرآن) لـ " الزركشي " ، وانظر كذلك : الفكيكي ، عبد الهادي : [1996 م] ، الاقتباس من القرآن الكريم في الشعر العربي ، الطّبعة الأولى ، منشورات دار التّمييز للنشر والتوزيع ، دمشق ، سورية ، ص : 05 .

² - الفكيكي ، عبد الهادي : الاقتباس من القرآن الكريم في الشعر العربي ، ص : 15 .

³ - أمين ، بكري شيخ : [1980 م] ، التعبير الفنّي في القرآن ، الطّبعة الزّابعة ، دار الشّروق ، مصر ، ص : 185 ، 186 ؛ كما ينظر : الزرقاني ، محمد عبد العظيم : مناهل العرفان في علوم القرآن ، (الجزء الثّاني) ، ص : 191 ، 192 .

الدراسة الإحصائية لهذه الأوزان الشعرية في القرآن الكريم أن نردّ هذا الافتراض وندحضه بالحجّة والتليل ؟ .
ونضيف إلى هذه الأسئلة بعض أسئلة المشككين القائلين بأننا نقرأ القرآن فلا نجدّه يخرج عن معهود العرب في لغتهم العربية « فمن حُرُوفهم رُكبت كلماته ، ومن كلماتهم أُلقت جُملته وآياته ، وعلى مناهجهم في التأليف جاء تأليفه ، فأَيّ جديد في مفردات العرب لم يعرفه العرب من موادّها وأبنيتها ؟ وأيّ جديد في تركيب القرآن لم تعرفه العرب من طرائقها ولم تأخذ به في مذاهبها ، حتى نقول إنّّه قد جاءهم بما فوق طاقتهم اللغويّة ؟ » ⁽¹⁾ .

هذه الأسئلة هي ما نسعى للإجابة على بعضها في هذا المقال ، حتّى لا نكتفي بالقول أنّ القرآن لحّن غريب ، وتوقع عجيب ، أو أنّه " يُدرّك ولا يُوصف " ... كما نسعى من خلاله إلى تأكيد الحقيقة القرآنية الثابتة لكون القرآن شعراً بدلالات إحصائية دقيقة ، ووفق منهج علمي يبيّن نسب كلّ وزن من أوزان الشعر في القرآن الكريم . وقد اتخذنا نموذجاً لذلك دائرة (المختلف) والتي نوّكد من خلالها أنّ هذه الأوزان لا ترقى بنسبها إلى أن تسمّى القرآن بالشعر . ويمكن سحب عموم نتائج هذه الدائرة على باقي التوائير العروضية للوصول إلى نتيجة واحدة مؤدّاها أنّ القرآن ليس بشعر ، وما هو بقول شاعر .

وستكون - بإذن الله تعالى - في هذا المقال الإجابة لبعض أوجه الإعجاز - (الإعجاز الإيقاعي) - ممّا يُخرّص ألسنة المشككين ، ويقطع حُجج المغرضين . لاسيّما وأنّ " الخليل بن أحمد " قد مّهد لنا الطريق لوصف إيقاع القرآن الكريم ، بوضعه لأسس الإيقاع الشعري ، ولا نستبعد أن يكون " الخليل " قد حاول دراسة إيقاع القرآن الكريم ، لما تمتّع به من روح علميّة زيّتها التقى والورع ، والرغبة في خدمة لغة القرآن الكريم .

01 - مصطلح الإيقاع وإشكاليّة مفهومه :

تعدّ دراسة " الخليل بن أحمد الفراهيدي " (ت 170 هـ) (أول دراسة إيقاعيّة عربيّة) على اعتبار أنّها أساس هذه الدراسات (النظريّة منها والتطبيقيّة) ممّن جاءت بعده وقامت على أسسه قبولاً أو تعديلاً أو رفضاً ، فهي في جوهرها تشكّل "ألف باء" الدراسات الإيقاعيّة العربيّة . وكان ممّا تناولته هذه الدراسة مفهوم (الإيقاع) ، وقد تصدّت كثير من الأبحاث التقديّة المعاصرة بالدراسة والبحث لمصطلح الإيقاع باعتباره من أبرز العناصر المميّزة للخطاب الشعري ، و« اجتزته ولاكنه كثيراً ألسنُ التقاد - قدامى ومحدثين - بالفهم حيناً ، وسوء الفهم والإدراك في أحيان كثيرة » ⁽²⁾ . وكانت إشكاليّة تحديده من أكثر إشكاليّات الحداثة الشعرية بروزاً « فنجد عهد اليونان الذين كانوا أوّل من اجتهد في تحديده ، لا يزال مفهوم الإيقاع محلّ نزاع في الرّأي بين الباحثين قدامى ومحدثين » ⁽³⁾ . ويقرّ بعض الباحثين بأنّ الإيقاع « من أكثر المفاهيم غموضاً

¹ - دراز ، عبد الله : التّبا العظيم (نظرات جديدة في القرآن) ، ص : 89 - 90 .

² - أنيس ، إبراهيم : [1976 م] ، مجلة الشعر ، العدد : 02 ، القاهرة ، مصر ، ص : 15 .

³ - المسعدي ، محمود : [1986 م] ، الإيقاع في الشعر العربي ، مؤسّسات عبد الكريم بن عبد الله ، تونس ، تونس ، ص : 05 .

قديماً وحديثاً إلى حدٍّ أننا لا نجد اليوم تعريفاً واضحاً له ⁽¹⁾. فهو يعدّ من أكثر المصطلحات استعصاء على التدليل ، والتفسير ، والتخرّج ، والتّقييد ، ولذا قيل « إنّه لا يمكن ضبطه » ⁽²⁾ و « لا ضابط له » ⁽³⁾. ويصفه " ياكبسون " بأنّه لفظة ملتبسة إلى حدٍّ ما ⁽⁴⁾ انطلاقاً من كون مفهوم الشّعر غير ثابت ، ويتغيّر مع الزّمن.

وتعود إشكالية تحديد مفهوم الإيقاع إلى تعدّد المنطلقات النظريّة ، واختلاف طرق الدّراسة التي تحكّمت في كلّ معالجة نقدية لموسيقى الشّعر ، الشّيء الذي ولّد أنماطاً من الرّؤى والتّصورات المتعدّدة ، والشّديدة التّباين ، ممّا يصعب معها حصر مفهوم الإيقاع انطلاقاً من هذا التّعدّد في فهمه . يقول الباحثان ، " رونييه وليك " و " واستن ورين " : « ليست مشكلة الإيقاع مقصورة على الأدب بشكل نوعي أو حتى على اللغة ، فهناك إيقاع للطّبيعة وآخر للعمل ، وإيقاع للإشارات الضّوئية ، وإيقاعات للموسيقى ، وهناك بالمعنى المجازي إيقاعات للفنون التشكيلية » ⁽⁵⁾. ويُشيران إلى أنّ الإيقاع ظاهرة لغويّة تعدّدت فيها التّطبيقات بالقول : « إنّ الإيقاع أيضاً ظاهرة لغويّة عامّة ، ولسنا بحاجة إلى مناقشة مائة نظريّة ونظريّة حول الطّبيعة الفعلية للإيقاع » ⁽⁶⁾. ف « الإيقاعات لا تخصّ ولا يحاط بها كثرة - لا العربيّة منها ولا العجميّة - في كلّ لسان وفي كلّ مملكة » ⁽⁷⁾.

02 - تعريف الإيقاع :

كأيّ إشكالية لم تستقرّ بعد فإنّ الإيقاع يستعصي على التعريف التّبايني ، لأنّ له صورا وتجليات بعدد المتخلّفين حوله . وهناك آراء كثيرة في تعريفه ، ونجد أنّ أصل « الإيقاع » (Rythme) هو مصطلح ينحدر من اللفظ الإغريقي « Ruthmos » ⁽⁸⁾ وهو بدوره مشتق من الفعل « Rheein » بمعنى " يناسب " أو " يتدفّق " ⁽⁹⁾.

¹ - ياكبسون ، رومان : [1988 م] ، قضايا الشّعريّة ، ترجمة : محمّد الولي ومبارك حنون ، الطّبعة الأولى ، دار توبقال للشّعر ، التّار البيضاء ، المغرب ، ص : 107 .

² - العياشي ، محمد : نظريّة إيقاع الشّعر العربي ، ص : 90 .

³ - إسمايل ، عزّ الدين : الشّعر العربي المعاصر ، قضاياه وظواهره الفنيّة والمعنويّة ، ص : 53 .

⁴ - انظر : ياكبسون ، رومان : قضايا الشّعريّة ، ص : 106 .

⁵ - وارين ، أوستن و ويلك ، رينيه : [1985 م] ، نظريّة الأدب ، ترجمة : محيي الدّين صبيحي ، الطّبعة الثالثة ، المؤسّسة العربيّة للدراسات والنّشر ، بيروت ، لبنان ، ص : 170 .

⁶ - المرجع السابق ، ن . ص .

⁷ - الكندي ، أبو يوسف يعقوب بن إسحاق : [1962 م] ، رسالة الكندي في اللّحن والتّغم ، ص : 25 .

⁸ - Robert Paul : Le Robert , Dictionnaire alphabétique et analogique de la langue française , société du nouveau Littre le Robert, Paris XI^e Tome: 06 , P: 99 (Rythme) .

⁹ - فؤاد ، زكريا : [1991 م] ، مع الموسيقى ، الطّبعة الأولى ، مكتبة مصر للطّبوعات ، مصر ، ص : 51 .

وقد ذكر أنّ « لـ الخليل " كتاباً معروفاً في (الألبان والنغم) » ⁽¹⁾. ولعلّ معرفته بالموسيقى ونظمه الشعر كانا وراء افتراض معرفته بالإيقاع الذي يرادف في تلك الروايات النغم أو الموسيقى ، و لعلّ تلك المعرفة أحدثت له علم العروض كما ينقل عن " ياقوت " ⁽²⁾.

ولـ " ابن خلكان " في كتابه (وفيات الأعيان) ، رأي في التطريب الحاصل بين الأصول التي اعتمدها ، " الخليل " لإقامة علم العروض ، وبين علم الموسيقى. يقول: « وله - [أي الخليل] - معرفة بالإيقاع والنغم ، وتلك المعرفة أحدثت له علم العروض ، فإنها متقاربان في المأخذ » ⁽³⁾. وقد سُمّي " الخليل " كتاباً من كتبه في ذلك المعنى كتاب (الإيقاع) ⁽⁴⁾.

كما نجد في أول المعاجم العربية ، أنّ مادة (وقع) في (العين) لـ " الخليل " لا تتضمن (الإيقاع) في مشتقاتها. وأقرب ما تحيل إليه هو « وقع حوافر الدابة . يعني : ما يُسمع من وقعه » ⁽⁵⁾.

ولا غرابة أن نجد باحثين معاصرين يذهبون إلى إغفال " الخليل " مفهوم الإيقاع وجوهره وحقيقته واستنباطه ونظامه وتركيبه ⁽⁶⁾. وأن يذهب بعضهم إلى حدّ القول بأنّ « نظام " الخليل " لا يصلح لوصف إيقاع القصيدة القديمة نفسها ، ناهيك عن القصيدة الجديدة » ⁽⁷⁾. وأنه « أضّر بعلم الإيقاع الشعري عند العرب » ⁽⁸⁾. ولكننا لا نستطيع مجازة معاصرينا في التشكيك بعلم " الخليل " ، فعلمه بالموسيقى واضح في استنباط زمنية الصوت ومدته وطبيعته التكرارية في البيت الشعري ، وهذا أمر يتأكد عند مقارنة تعريف النغم والإيقاع ⁽⁹⁾. إذ يقول " أحمد بن فارس " في " الصحاحي " : « إنّ أهل العروض مجمعون على

¹ - ابن المعتز : [1981 م] ، طبقات الشعراء ، تحقيق : عبد الستار أحمد خراج ، الطبعة الرابعة ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر ، ص : 96 .

² - مهدي الخزومي : [1989 م] ، الفراهيدي ، عبقري من البصرة ، خزانة التراث ، الطبعة الثانية ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، العراق ، ص : 100 .

³ - ابن خلكان ، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر : [د . ت] ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق : إحسان عباس ، (الجزء الثاني) ، دار صادر ، بيروت ، لبنان ، ص : 244 .

⁴ - ابن منظور : [د . ت] ، لسان العرب ، جلال الدين بن مكرم الأنصاري ، طبعة مصورة عن طبعة بولان ، التار المصرية للتأليف والترجمة ، الجزء العاشر ، ص : 290 .

⁵ - الفراهيدي ، الخليل بن أحمد : [1981 م] ، كتاب العين ، تحقيق : مهدي الخزومي وإبراهيم السامرائي ، الجزء الثاني ، دار الرشيد للنشر ، بغداد ، العراق ، ص : 176 .

⁶ - العياشي ، محمد : نظرية إيقاع الشعر العربي ، ص : 29 .

⁷ - المقالح ، عبد العزيز : [1989 م] ، أزمة القصيدة الجديدة ، د . ط ، دار الحداثة ، دار الكلمة ، بيروت ، صنعاء ، لبنان ، اليمن ، ص : 21 .

⁸ - العياشي ، محمد : المرجع السابق ، ص : 18 .

⁹ - الأرموي ، صفّي الدين : [1980 م] ، كتاب الأدوار ، شرح وتحقيق : الحاج هاشم الزجبي ، د . ط ، دار الرشيد ، بغداد ، العراق ، ص : 41 ، ص : 139 .

أنه لا فرق بين صناعة العروض وصناعة الإيقاع . إلا أن صناعة الإيقاع تقسم الزمان بالتغم ، وصناعة العروض تقسم الزمان بالحروف المسموعة ... » ⁽¹⁾ .

وقد عرّف " محمد العياشي " الإيقاع بما هو مشاهد من وقع حركات الفرس أو التّاقة فقال عنه : « ... وأما الإيقاع فهو ما توجي به حركة الفرس في سيره وعدوه ، وخطوة التّاقة ، وما شاكل ذلك ، لخضوع تلك الحركة في سيرها إلى مبادئ لا تفريط فيها هي : النسبية في الكميات ، والتناسب في الكيفيات ، والتّظام والمعاودة الدورية ، وتلك هي لوازم الإيقاع » ⁽²⁾ .

كما نجد أنّ نظرة النقاد الغربيين لمصطلح الإيقاع لها - من حيث الدّقة - ما يجعلها أبعد غوراً من مثيلتها لدى نقاد الشّعريّة العربيّة . فنجد الإيقاع في معجم "روبير" (Robert) عبارة عن « تكرار منتظم لأصوات موسيقية ، هي بدورها تتولّد عن تشاكل العناصر مقطعيّاً عبر سلسلة عناصر الكلام » ⁽³⁾ . وهو في معاجم غربيّة أخرى شبيه بهذا التعريف أو قريب منه .

تلك إذن بعض التّصوص ، استنبتت بذرتها في تربة الجدل الدائر حول ماهية الشّعري والإيقاع الشّعري . وهذه التّصوص - على اختلافها - تدور حول معاني مشتركة تُجملها في الآتي :

01 - إنّ الإيقاع في الشّعري العربي أشمل من الوزن ...

02 - أنّه يقوم على مجموعة عناصر هي : الحركة ، والنّسبة ، والتناسب ، والتّظام ، والمعاودة الدورية (التكرار) .

ونشير - في هذا المقام - إلى أنّ جلّ التعريفات للإيقاع تُشير إلى التكرار كأساس له في انتظام مُعَيّن ولا تُشير إلى طبيعة هذا الانتظام ، وتُغفل مفهوم الاطراد الذي يُؤسّس لهذا الانتظام ، ولذا فإننا نقترح التعريف الإجرائي الآتي وهو : « الإيقاع تكرارٌ لكمّ بانتظام واطراد » ^(*) . ونقصد بالاطراد هنا أن لا يفصل بين الظاهرة ومكررها فاصلٌ مُغاير ، وهذا المفهوم هو المعيار الذي ستقوم عليه دراستنا في هذا المقال لدائرة

¹ - ابن فارس ، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي : [1977 م] ، الصّاحبي في فقه اللغة ، تحقيق : أحمد صقر ، طبعة الباي الحلبي ، القاهرة ، مصر ، ص : 467 . وانظر كذلك : (النّص نفسه) عند ، السيوطي : [1987 م] ، المهر في علوم اللغة وأنواعها ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم وآخرون ، الجزء الثاني ، د . ط ، المكتبة العصرية ، بيروت ، لبنان ، ص : 470 .

² - العياشي ، محمد : نظرية إيقاع النّوع العربي ، مرجع سابق ، ص : 43 .

³ - Paul Robert ، Le Robert ، Dictionnaire alphabétique et analogique de la langue française ،

Tome : 06 ، P: 99 (Rythme) .

(*) - يرجع الفضل في وضع هذا التعريف إلى الأستاذ الفاضل ، الدكتور : " محمد خليفة " - فعنا الله بعلمه - ويُشكل التعريف أساس محاضراته في مقياس (النظرية الإيقاعية) المُلقاة على طلبة السّنة أولى ماجستير ، تخصّص : (الدراسات الإيقاعية العربيّة ، النظرية والتّطبيق) ، 2010 م - 2011 م .

المختلف في البحث عن البنى الإيقاعية الشعرية في القرآن الكريم . وقبل أن نعرض لدائرة المختلف كنموذج للاختلاف القائم بين القرآن الكريم ، والأوزان التي وضعه الخليل بن أحمد الفراهيدي في عروضه كان لزاماً علينا أن نبيّن المنهج العام الذي اعتمده الخليل في وضع عروضه ، الذي يُعدّ أحد العلوم العربية التي تبدو شديدة الإحكام من الناحية المنهجية ، ولا أدلّ على ذلك من اعتمادها على أسس رياضية محكمة وضعها " الخليل " منهجية علمية لبناء هذا العلم ، وقد امتاز عقل " الخليل " بعدّة أمور أهلتها لوضع هذا المنهج المحكم لعلم العروض وهي :

« القدرة الفذة على (الملاحظة الدقيقة) و (الاستقراء المتقضي الحذر) ، والقدرة الماثلة على (حدس وجود التماذج والأنماط المتكررة الحدوث بين الزكّام الهائل من الوحدات المحلّة) ، ثم التمكن من (صياغة نظام نظري قادر على وصف هذه الأنماط واحتوائها) » ⁽¹⁾ . وقد أوجز " الأخفش " منهجية وضع العروض بقوله : « أمّا وضع العروض فإنهم جمعوا كلّ ما وصل إليهم من أبنية العرب فعرفوا عدد حروفها ساكنها ومتحرّكها ، وهذا البناء المؤلّف من الكلام هو الذي تسمّيه العرب شعراً ، فما وافق هذا البناء الذي ستمته العرب شعراً في عدد حروفه ساكنه ومتحرّكه فهو شعر ، وما خالفه - وإن أشبهه في بعض الأشياء - فليس اسمه شعراً » ⁽²⁾ .

ويمكننا أن نجمل منهجية " الخليل " في وضعه لعلم العروض في الخطوات التالية :

- 01 - الانطلاق من السواكن والمتحرّكات وتشكيل المواقع (الأسباب والأوتاد) .
- 02 - تشكيل التفعيلات انطلاقاً من ترتيب المواقع ، مع اشتراط أن تضمّ التفعيلة الواحدة وتبدأ واحداً فقط .
- 02 - تنويع الصيغ الوزنية بالقلب . واستخراج التفعيلات الخماسية كحدّ أدنى ، والسباعية كحدّ أقصى .
- 03 - تشكيل الوحدات الإيقاعية .
- 04 - جمع التفاصيل المكتشفة في أجز .
- 05 - عرض هذه الأجز على القول الشعري الذي وصله ، وتحديد الأوزان الناتجة .
- 06 - استخلاص القاعدة .

أمّا ما يتعلّق بالأسس العامة لتشكيل البنى الإيقاعية في القرآن الكريم فقد قامت على مجموعة من العوامل التي ظهر أثرها وتباينها بين السور المكيّة ، والمدنيّة ، فقد كانت الحياة في العهد المكيّ - وهو عهد بدء الدّعوة ونزول الوحي - تقتضي الاهتمام بترسيخ العقيدة في القلوب ، ممّا يستلزم مخاطبة القلوب لا العقول ،

¹ - انظر : أبو ديب ، كمال : في البنية الإيقاعية للشعر العربي ، نحو بديل جذري لعروض الخليل ، ومقدمة في علم الإيقاع المقارن ، دار العلم للملايين ، الطبعة الأولى ، بيروت ، لبنان ، ص : 44 .

² - الأخفش : كتاب العروض ، ص : 143 .

ولهذا فإن الإيقاع في السور المكية يتوجه إلى جلاع نفس الإنسان ، يلامس به القلب ، ويهز به المشاعر ، ويحرك به الوجدان ، ولا يسعى في هذا المستوى من الدعوة إلى مخاطبة العقل المجرد . ومن هنا كانت اللوازم الإيقاعية المتكررة ميزة في السور المكية ، وهي تعد نغمات إيقاعية تثير النفوس وتحركها ، وكان من بين البنى الإيقاعية ما يتقاطع مع بعض أوزان الشعر ولكنه يختفي في طيات النسيج القرآني فلا يكاد يلمس بالنظر ... وإن كان يحس بالذوق في إيقاعات تتجه جميعاً إلى النفس الإنسانية ، فتؤثر فيها بما تنقله هذه الإيقاعات من أحاسيس ومشاعر ، وبهذا التأثير يكون الإيقاع القرآني قد بلغ غايته .

وكما اختلفت ضروب الإيقاع في القرآن ، فإن الأمر يترتب عليه اختلاف في البنية نفسها. وقد تجسد ذلك في استئثار بعض الآيات المكية بإيقاعات معينة ، واستئثار الآيات المدنية ببنى إيقاعية أخرى. كما تتضمن السور المدنية تفاصيل أحكام الحدود والفرائض والحقوق ، والقوانين المدنية والاجتماعية والدولية ... وهو ما تحتاج معه إلى إطالة أكثر لما تحتويه من تشريع ، ولذا فإننا نجد الإيقاع فيها أقل وضوحاً من السور المكية .

والمتتبع لسور القرآن يلاحظ أن ما يقارب ثلاثة أرباع سورة مكية ، مما يرفع نسبة الإيقاع في القرآن الكريم الذي تعتمد السور المكية في تبليغ ما جاءت من أجله من إيصال معاني التوحيد وترسيخ أركان العقيدة في العهد المكي ، والذي يعمل الإيقاع على تغلغله في القلوب كما يؤتي أكله .

- البنى الإيقاعية لدائرة المختلف :

ويُقصد من هذه الدائرة ثلاثة أبحر مستعملة هي : الطويل ، والمديد ، والبسيط ، وبحران مملان : الأول (المستطيل) ، ويسمى (الوسيط) أيضاً ، والثاني (الممتد) ، ويسمى (الوسم) أيضاً .

جدول يوضح نسب البنى الإيقاعية لدائرة المختلف في القرآن الكريم .

الرقم	البحر	البنية الإيقاعية	التكرار		
			المكي	المدني	المجموع
01	الطويل	فَعُولُنْ مَفَاعِيلُنْ = فَعُولُنْ مَفَاعِيلُنْ	011	005	016
02	المديد	فَاعِلَائُنْ فَاعِلُنْ فَعُولُنْ = فَاعِلَائُنْ فَاعِلُنْ فَعُولُنْ	001	000	001

ونلاحظ من خلال تحليلنا للجدول غياباً كلياً لأوزان البسيط والممتلئة في البنى الإيقاعية التالية:

01 - مُسْتَفْعِلُنْ فَاعِلُنْ مُسْتَفْعِلُنْ فَاعِلُنْ = مُسْتَفْعِلُنْ فَاعِلُنْ مُسْتَفْعِلُنْ فَاعِلُنْ

02 - مُسْتَفْعِلُنْ فَاعِلُنْ مُسْتَفْعِلُنْ فَعِلُنْ = مُسْتَفْعِلُنْ فَاعِلُنْ مُسْتَفْعِلُنْ فَعِلُنْ

03 - مُسْتَفْعِلُنْ فَاعِلُنْ مُسْتَفْعِلُنْ = مُسْتَفْعِلُنْ فَاعِلُنْ مُسْتَفْعِلُنْ

04 - مُسْتَفْعِلُنْ فَاعِلُنْ مُسْتَفْعِلُنْ = مُسْتَفْعِلُنْ فَاعِلُنْ مُسْتَفْعِلُنْ

05 - مُسْتَفْعِلُنْ فَاعِلُنْ فَعُولُنْ = مُسْتَفْعِلُنْ فَاعِلُنْ فَعُولُنْ

مع ملاحظة غلبة إيقاع بحري الطويل والمديد في السور المكية عنه في السور المدنية مما يرجح كثرة إيقاع السور المكية وغلبيتها .

01 - ومن الآيات المدنية التي تمثل إيقاع بحر الطويل [فَعُولُنْ مَفَاعِيلُنْ فَعُولُنْ مَفَاعِيلُنْ] نجد :

[وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ [يَرُدُّوكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفًّا] رَا [] [البقرة : 109] .

[] [فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يَفْقَهُمُ حَدُودَ اللَّهِ] ه فَلَاجُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ [] [البقرة : 229] .

[] [إِنْ يَدْعُوْا نَّ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَّا نَاذِرُونَ] ن إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا . لَعَنَهُ اللَّهُ [] [النساء : 117] .

02 - ومن المكي نجد :

[] [فَمَا كَا] ن دَعَاوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا [] أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ [] [الأعراف : 05] .

و [] [وَكَذَلِكَ أَتَيْنَا عَلَيْهِمْ لَيْعًا] لَمَّا أَنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا [] [الكهف : 21] .

و [] [وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ] فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ [] [الكهف : 29] .

و [] [إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمِعُ الصُّمَّ الذِّ] دَعَاءَ إِذَا وَلُّوا مُدِيرِينَ [] [النمل : 80] .

و [] [فَإِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمِعُ الصُّمَّ الذِّ] دَعَاءَ إِذَا وَلُّوا مُدِيرِينَ [] [الزمر : 52] .

و [] [يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ] [] [سبأ : 31] .

و [] [إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَوْا فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ] [] [الأحقاف : 13] .

و [] [وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادُ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ . يَوْمَ] م يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ [] [ق : 41 - 42] .

والملاحظ أنّ نسبة المكيّ فيها راجحٌ على المدنيّ ، ممّا يؤكّد استعانة الآيات المكيّة بالإيقاع في تثبيت العقيدة ، وملاءمة الجوّ القصصي ، وغير ذلك من خصائص الأسلوب المكيّ ، كما أنّ جميع هذه الأمثلة - مكيها والمدنيّ - لا يُمثّل أيّ منها معنى واضحاً عند تطابقه مع إيقاع البحر ، وكأنّه يُحاول أن يتخلّص من هذا الوزن ليبقى أثره الإيقاعي المميّز دون أن يطابق المعنى ، حتّى يبتعد عن وصفه بالشعر ، ممّا يعني أنّها لا تُشكّل بنية إيقاعيّة شعريّة وإن حافظت على بنية الإيقاع الشعري ، وهذا دليلٌ على أنّ القرآن ليس بشعر وإن تضمن بعض أوزان الشعر وإيقاعاته ، وهذا باستثناء ما جاء في [الكهف : 29] ، وفيها يتأهّى الإيقاع مع المعنى ، وكأنّه يُريد أن يؤكّد بهذا التطابق - وفي هذا المقطع بالذات - حقيقة نفي الشعر عن القرآن ، ويؤكد ذلك قول الله تعالى : [وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ] ، وارك الخيسار بعد ذلك للمعاندين ليؤمنوا بهذه الحقيقة البينة أو يكفروا بها : [فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ] / [فَعُولٌ مَفَاعِيلٌ فَعُولٌ مَفَاعِيلٌ] .

أمّا عن البنية الإيقاعيّة الممثّلة للمديد [فاعِلَائِنْ فاعِلُنْ فَعِلُنْ = فاعِلَائِنْ فاعِلُنْ فَعِلُنْ] فنجدّها تتطابق مع قوله تعالى : [وَ لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَقَصَّصْتُ عَنْهُمْ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْ] كَأَنَّا تَتَخَذُونَ آيَاتَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ [التّحل : 92] . وهي مكيّة ، وإذا كان أيّ شاعر يسعى لنسج قصيدته ، وغزلها على نولٍ مُحكم يحيك فيه المعنى على مقدار الوزن الإيقاعي ، فإنّ القرآن يسعى لجعل هذا الغزل أنكثاً ، ويُبعده عن المعنى ليؤكد أنّ القرآن لا يُمكن بحالٍ أن يكون شعراً ، وأنّ استعمال هذا الإيقاع إنّما هو لاستمالة أسماع الكفار في العهد المكيّ ، وهم لا يزالون على صلة بأوزان الشعر ، والدليل على هذا أنّ هذا الوزن لا نجده في العهد المدنيّ ، الذي أصبحت فيه الدّولة للعقل والحجّة والبرهان ... ، وهو ما يُثبت أيضاً ارتفاع الإيقاع في السّور المكيّة عنه في السّور المدنيّة ، وهذه البنية الإيقاعيّة ممّا يربّح كفة هذا الطّرح ويؤكدّه ، والله أعلم .

وبعد أن عرضنا لنتائج دائرة المختلف وما يُمكن أن توضّحه من أساس مخالفة القرآن للأوزان التي وضعها الخليل بن أحمد الفراهيدي - رحمه الله تعالى - نعرض - دعماً لهذه النتائج - ما قرّرت دراست أخرى في بيان هذه المخالفة وأوجهها ، فهناك عدّة أمور خالف فيها القرآن الشعر ، ممّا يُمكن اعتبارها خصائص للإيقاع القرآني ، هي :

- 01 - عند الكتابة العروضيّة للقرآن نجدُ تتابعاً لأكثر من أربع حركات ، وهو ما لا نجده في الشعر ، وحتّى الشّواهد التي يوردها العروضيون لإثبات تتابع أربع حركات تبدو مفتعلة أو شاذّة ، مثل هذا البيت الذي يتردّد في كثير من كتب العروض : وزعموا أنّهم لقيهم رجلاً = فأخذوا ماله وضربوا عنقه⁽¹⁾ .
- والذي تفوح منه رائحة التّكلف والتّصنّع ، لتبرير تتابع الحركات الأربع في الشعر .

¹ - انظر : الجامع : ص : 112 ، والإقناع : ص : 20 ، والعروض لابن جني : ص : 40 .

في حين أنّ هذا التتابع كثير في القرآن الكريم مما يقوم دليلاً على مخالفة الإيقاع القرآني لإيقاع الشعر العربي .
فضلاً عن الاختلاف في قواعد التجاور التي حدّدها " مصطفى حركات " لإيقاع الشعر ، إذ نجد تجاوراً لأكثر من ثلاثة أسباب ، وتجاوراً لوتين أو أكثر ، وغيرها مما لا يمكن أن نجده في الشعر ...
02 - مخالفة أوزان القرآن لأوزان الشعر ، وتتجلى هذه المخالفة لأوزان الشعر في وجود أوزان كثيرة مما لم يذكره أهل العروض ، ويكفي في مخالفة الإيقاع القرآني لإيقاع الشعر العربي ذلك الاختلاف الذي نلمسه بينها في تتابع الحركات والسكنات ، قال " الأخفش " : « فهذا البناء المؤلف من الكلام هو الذي تسميه العرب شعراً ، فما وافق هذا البناء الذي سَمّته العرب شعراً في عدد حروفه ساكنه ومتحركه فهو شعراً ، وما خالفه - وإن أشبهه في بعض الأشياء - فليس اسمه شعراً » ⁽¹⁾ .

03 - قصديّة الشعر ، فالشعر لا يكون شعراً إلا إذا قُصد إليه قصداً ، وأريد به أن يكون شعراً ، أمّا ما يجيء موزوناً بمحض المصادفة فليس شعراً ، وإلا كان الناس كلّهم شعراء ، لاحتمال ورود مثل هذا في كلام الناس جميعاً .

04 - التلاوة والإنشاد ، فطريقة تلاوة القرآن تُبين مخالفة القرآن للشعر . فليس يكفي أن توافق الآيات في توالي المقاطع ما جرت عليه أوزان العروض من خضوعها لنظام خاص في توالي مقاطعها ، بل لا بدّ من أن (تُنشد الآية كما يُنشد الشعر) . وهذا ما لا نجده في التلاوة ، فإذا ثلّيت الآية كما يرثل القرآن بُدّت عن الموسيقى الخاصة التي يتطلبها الشعر في إنشاده ، وقد ترثّل كلّ الآيات التي توافقت مع إيقاع الشعر ، فلا يكاد يُدرِك السامع ما فيها من إيقاع . وإيقاع القرآن قد يشترك مع إيقاع الشعر في الأوزان والقوافي ، ولكن يميّز القرآن بترتيله كما يميّز الشعر بإنشاده . ولعلّ ذلك ما خلّص إليه " ابن عربي " عندما انتهى من مناقشة إحدى الآيات [سبأ : 30] إلى القول : « ولو قرئ كذلك لم يكن قرآناً ، ومتى قرئت الآية على ما جاءت لم تكن على وزن الشعر » ⁽²⁾ . لبيّن بقوله هذا الفرق بين إنشاد الشعر وتلاوة القرآن ، وأنّ بهما يمكن تمييز هذا من ذاك .

05 - الزخافات والعلل ، فأغلب الزخافات والعلل هو ممّا تحتمه الضرورة الشعرية ، وما تستدعيه من خروجها عن قواعد العربية ، ممّا لا نجده في القرآن الكريم ، إذ لا (ضرورة) فيه - رغم ما يبدو من مخالفته للعربية في الرسم أو النطق ... - فهو كتاب (أحكم آياته) (بلسان عربي مبين) .

06 - تفتيت الأوزان الشعرية لبنية المعنى في القرآن الكريم ، وهذا ما اتضح فيما عرضنا من أمثلة لأوزان دائرة المختلف في القرآن الكريم ، ومن الأدلة - أيضاً - على مخالفة القرآن للشعر أنّ بعض الأوزان الشعرية التي

¹ - الأخفش ، مرجع سابق ، ص : 56 .

² - ابن العربي ، محمد بن عبد الله الأندلسي : [د . ت] ، أحكام القرآن لابن العربي ، الطبعة الأولى ، دار الكتب العلمية ، ج 4 / ص : 21 .

جاءت فيه لا تدلّ على معنى واضح ، ومثال ذلك: قول الله تعالى : [وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ [دُعَاءُهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا] [الإسراء : 11] .

فهل هناك عاقل يقول إنّ [دُعَاءُهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ] تمثل شعراً أو حتى جملة مفيدة ؟

وقوله تعالى : [وَاحْفَظْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّيحِ] رَحْمَةً وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْنِي صَغِيرًا] [الإسراء : 24] فهل هناك لبيب يقول إنّ [هُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّيحِ] تمثل شعراً أو حتى كلاماً ذا معنى ؟

07 - ومن الأدلة على مخالفة القرآن للشعر ما ذكره " الباقلائي " في (إعجاز القرآن) في " فصل سماء " نفي الشعر من القرآن " ، حاول فيه حمده مستعيناً بمنطقه وقدرته على المحاجة ، أن ينفي الشعر عن القرآن الكريم . أمّا أدلته فتتلخص في:

01 - أنّ الفصحاء من العرب لم يروه شعراً كشعرهم ، ولذا لم يعارضوه كما كانت عاداتهم في معارضة الشعر ، هذا مع سهولة نظم الشعر عليهم والتفنن في نواحيه . وإذا كان وزن القرآن لم يظهر لأصحاب الشعر ممن يحتاج بهم ، فكيف يدعي المتأخرون أنه أظهر لهم في آياته وزن كوزن الشعر ؟؟

02 - أنّ أهل العروض يجمعون على أنّ أقلّ الشعر ما تكون من بيتين ، وقال آخرون إنّ أقلّه ما تكون من أربعة أبيات متقاة ، ولم يرد مثل هذا في القرآن الكريم .

03 - أنّ ما اختلف رويّه من الأبيات لا يعدّ شعراً عند بعض العلماء ، ولذا أنكروا أن يُسمّى الرجز - ولا سيما المشطور والمنهوك منه - شعراً .

ومعرفتنا لأوجه الاختلاف بين القرآن والأوزان التي وضعها الخليل ، اتضح لنا مقام كلّ منها ، فبضدها تميّز الأشياء والشّيء بضده يُعرف ، ولعلّ هذا هو بعض ما كان يقصده الجوهري في (ورقته) بقوله إنّ للعروض عدّة فوائد منها أنّه : « يُعرف به مفارقة القرآن للشعر و(مُباينته له) » ⁽¹⁾ .

خاتمة :

في ختام هذه المقال تتضح لدينا نتيجة أساسيّة تتمثل في أنّ الأوزان العروضيّة الموجودة في القرآن الكريم، القرآن مكوّن منها جميعاً ، وأيّ منها منفرداً ليس قرآناً ، ومعنى ذلك كلّ أن بين إيقاع القرآن وإيقاع الشعر مفارقةً يتعدّد اختزالها في مقالٍ كهذا . ويمكن الجزم أنّه كلّما ابتعد الوزن عن وصفه بالشعر كلما كانت نسبته أكثر في القرآن الكريم ، ممّا يؤكّد حقيقة مخالفة القرآن للشعر ومباينته له .

¹ - الجوهري : عروض الورقة ، ص : 54 .

وما يمكن أن نخلص إليه من نتائج في هذا المقال نجمها في التقاط الآتية :

01 - إنَّ النَّصَّ القرآني نصَّ إيقاعي معبر ، فهناك مقصدية واضحة في تركيب هذا النصَّ تركيباً إيقاعياً ذا جرس لغوي عذب يقوم على مجموعة من القواعد والأسس البنائية التي تشكل هذا الإيقاع ، بحيث نجد أنَّ إعجاز القرآن الإيقاعي لا يقلُّ أهمية عن الإعجاز البلاغي والدلالي ...

02 - إنَّ إيقاع القرآن الكريم يمكننا دراسته بطريقة علمية حديثة ، تستعمل فيها الطريقة الإحصائية أو غيرها مما يمكن به خدمة كتاب الله تعالى .

03 - استنثار الإيقاع القرآني المكِّي بجلِّ البنى الإيقاعية الشعرية ، بعكس الإيقاع القرآني المدني .

04 - تشطِّي طَرَفِي الإيقاع القرآني الذي يتضمَّن بنية إيقاعية شعرية ، ممَّا يعترى البنية الكلامية بتر في الحروف من أحد طرفي البنية الإيقاعية أو كليهما ، وذلك كلُّه حتَّى لا تنتهى بنية الكلمات مع البنية الإيقاعية - إلَّا ما ندر - وفي هذا تأكيد آخر على أنَّ القرآن ليس بشعر .

05 - إمكانيات الاقتباس الإيقاعي من القرآن ثرية ومتعددة ، حيث تستوعب مئات الأوزان المضبوطة بقواعد ثابتة ، تقوم على أسس من التكرار والاطراد والانتظام .

06 - تأكيد الحقيقة القرآنية الثافية لكون القرآن شعراً بدلالات إحصائية دقيقة ، ووفق منهج علمي واضح المعالم يبيِّن نسب كلِّ وزن من أوزان الشعر في القرآن الكريم . وأنَّ هذه الأوزان لا ترقى بنسبها إلى أن نسم القرآن بالشعر .

07 - لا مجال للحديث عن قضية (الزحافات والعلل) في القرآن الكريم ، وهي التي يلجأ إليها الشعراء (ضرورة) بالزيادة أو التقصان ، لأنَّه لا يمكن زيادة حرف أو إنقاصه بحال ، مع الإشارة إلى اختلاف القراءات قد يلقي الضوء على أسباب هذه الاختلافات البسيطة بين القراءات - وهي مبررة - والتي يمكن الاستفادة منها هي الأخرى في إثبات أسباب تغير إيقاع بعض آي القرآن الكريم بتغير القراءة وكيف يؤثر ذلك على الإيقاع القرآني برمته مما يكون مجالاً لدراسات أوسع ، والذي نصل معه إلى أنَّ كل ما هو موزون في القرآن هو وزن بذاته. 08 - يجب أن نتلو القرآن العظيم بنغمة إيقاعية تخالف كلَّ القراءات الأدبية من شعر ونثر ، لأنَّ له قواعده الخاصة به ، المنقولة إلينا مشافهة بالسند المتواتر عن الرسول ﷺ .

09 - القرآن الكريم [تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ] لا تنقضي عجائبه ، ولا تنفى غرائبه . [وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ . وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَا تُدْكِرُونَ . تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ] [الحاقة : 41 - 43] .

وإذا كنا - بدءاً وختاماً - نوقن بهذه النتيجة فإن إقدامنا على البحث إنما كان سيراً على خطى نبينا " إبراهيم " عليه السلام حين قال (بَلَى) : [وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي] [البقرة : 260] .
فما كان من توفيق فمن الله وحده ، وما كان من تقصير أو نقص فمن نفسي والشيطان ، والله المستعان .
والله نسأل أن يجعل عملنا هذا خالصاً لوجهه الكريم ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .
وصلّى الله على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه .
وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين .

القرآن الكريم

المصادر والمراجع :

- 01 - أبو ديب ، كمال : [1974 م] ، في البنية الإيقاعية للشعر العربي ، نحو بديل جذري لعروض الخليل ، ومقدمة في علم الإيقاع المقارن ، دار العلم للملايين ، الطبعة الأولى ، بيروت ، لبنان .
- 02 - الأخفش ، أبو الحسن سعيد بن مسعدة : [1390 هـ - 1970 م] ، كتاب القوافي ، تحقيق : عزّة حسن ، مطبعة وزارة الثقافة ، دمشق ، سورية .
- 03 - الأرموي ، صفّي الدين : [1980 م] ، كتاب الأدوار ، شرح وتحقيق : الحاج هاشم الرّجبي ، د . ط ، دار الرّشيد ، بغداد ، العراق .
- 04 - إسماعيل ، عزّ الدين : [1972 م] ، الشعر العربي المعاصر ، قضاياها وظواهره الفنيّة والمعنويّة ، الطبعة الثّانية ، دار العودة ودار الثقافة ، بيروت ، لبنان .
- 05 - أمين ، بكري شيخ : [1980 م] ، التعبير الفنّي في القرآن ، الطبعة الرابعة ، دار الشّروق ، مصر .
- 06 - أنيس ، إبراهيم : [1976 م] ، مجلة الشعر ، العدد : 02 ، القاهرة ، مصر .
- 07 - البحراوي ، سيّد : [1993 م] ، العروض وإيقاع الشعر العربي (محاولة لإنتاج معرفة علميّة) ، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، مصر .
- 08 - الجوهرى ، أبو نصر إسماعيل بن حماد : [1985 م] ، عروض الورقة ، تحقيق وتقديم : صالح جمال بدوي ، د . ط ، مطبوعات نادي مكة الثقافي ، (مطابع الصفا بمكة) ، مكة المكرمة ، المملكة العربيّة السعوديّة .
- 09 - حريز ، سامي محمّد هشام : [2006 م] ، نظرات من الإعجاز البياني في القرآن الكريم (نظرياً وتطبيقياً) ، الطبعة الأولى ، دار الشّروق للنشر والتّوزيع ، عمّان ، الأردن .
- 10 - ابن خلكان ، أبو العباس شمس الدّين أحمد بن محمد بن أبي بكر : [د . ت] ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزّمان ، تحقيق : إحسان عباس ، (الجزء الثّاني) ، دار صادر ، بيروت ، لبنان .

مجلة الباحث (العرو: الثالث عشر)

- 11 - دتاز ، عبد الله : [1405 هـ - 1985 م] ، الثبأ العظيم (نظرات جديدة في القرآن) ، د . ط ، نشر وتوزيع دار الثقافة ، الدوحة ، قطر .
- 12 - الزرقاني ، محمد عبد العظيم : [1995 م] ، مناهل العرفان في علوم القرآن ، (الجزء الثاني) ، حققه واعتنى به : فوز أحمد زمرلي ، الطبعة الأولى ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان .
- 13 - الشيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر : [1987 م] ، المزهري في علوم اللغة وأنواعها ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم وآخرون ، الجزء الثاني ، د . ط ، المكتبة العصرية ، بيروت ، لبنان .
- 14 - شبايك ، عيد محمد : [1993 م] ، الفاصلة القرآنية بين المبنى والمعنى ، الطبعة الأولى ، دار حراء ، القاهرة ، مصر .
- 15 - ضيف ، شوقي : [1930 م] ، فصول في الشعر وقده ، د . ط ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر .
- 16 - عبد اللطيف ، محمد حماسة : [1999 م] ، البناء العروضي للقصيد العربية ، الطبعة الأولى ، دار الشروق ، القاهرة ، مصر .
- 17 - ابن فارس ، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي : [1977 م] ، الصاحبي في فقه اللغة ، تحقيق : أحمد صقر ، طبعة البايع الحلبي ، القاهرة ، مصر .
- 18 - فؤاد ، زكريا : [1991 م] ، مع الموسيقى ، الطبعة الأولى ، مكتبة مصر للمطبوعات ، مصر .
- 19 - الفراهيدي ، الخليل بن أحمد : [1981 م] ، كتاب العين ، تحقيق : مهدي الخزومي وإبراهيم السامرائي ، الجزء الثاني ، دار الرشيد للنشر ، بغداد ، العراق .
- 20 - الفكيكي ، عبد الهادي : [1996 م] ، الاقتباس من القرآن الكريم في الشعر العربي ، الطبعة الأولى ، منشورات دار التميز للنشر والتوزيع ، دمشق ، سورية .
- 21 - المسعدي ، محمود : [1986 م] ، الإيقاع في الشعر العربي ، مؤسّسات عبد الكريم بن عبد الله ، تونس ، تونس .
- 22 - الكندي ، أبو يوسف يعقوب بن إسحاق : [1962 م] ، رسالة الكندي في اللحن والتغيم ، تحقيق : زكرياء يوسف ، د . ط ، بغداد ، العراق .
- 23 - المقالح ، عبد العزيز : [1989 م] ، أزمة القصيدة الجديدة ، د . ط ، دار الحداثة ، دار الكلمة ، بيروت ، صنعاء ، لبنان ، اليمن .
- 24 - ابن المعتز : [1981 م] ، طبقات الشعراء ، تحقيق : عبد الستار أحمد خراج ، الطبعة الرابعة ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر .
- 25 - ابن منظور : [د . ت] ، لسان العرب ، جمال الدين بن مكرم الأنصاري ، طبعة مصورة عن طبعة بولان ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، الجزء العاشر .
- 26 - مهدي الخزومي : [1989 م] ، الفراهيدي ، عبقري من البصرة ، خزانة التراث ، الطبعة الثانية ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، العراق .

مجلة الباحث (العرو: الثالث عشر)

- 27 - وارين ، أوستن و ويلك ، رينيه : [1985 م] ، نظرية الأدب ، ترجمة : محيي الدين صبحي ، الطبعة الثالثة ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، لبنان .
- 28 - ياكسون ، رومان : [1988 م] ، قضايا الشعرية ، ترجمة : محمد الولي ومبارك حنون ، الطبعة الأولى ، دار توفيق للنشر ، الدار البيضاء ، المغرب .

29 - Robert , Paul : **Le Robert ، Dictionnaire alphabétique et analogique de la langue française** ، société du nouveau Littré le Robert. Paris XI^e Tome: 06 ، (Rythme) .